الفصل الثامن

متفرقات

هتلر: مؤسس الدولة الصهيونية؟

الحضارة الغربية، حضارة داروينية تمجّد القوة وتجعلها هى الآلية الوحيدة لحسم الصراعات، كما تجعل مصلحتها معيارًا وحيدًا أوحد للحكم على الظواهر. وهى حضارة إمبريالية عنصرية تتمركز حول نفسها ولا ترى الآخر إلا باعتباره مادة استعمالية، وهذا هو جوهر كل من النازية والصهيونية. فإذا كانت النازية قد حوّلت اليهود وغيرهم إلى مادة استعمالية، فإن الصهاينة قد فعلوا ذلك مع الفلسطينيين. وإذا كان النازيون قد فرضوا رؤيتهم على الواقع بقوة السلاح، فإن الصهاينة لم يتوانوا عن استخدام نفس المنهج.

ويبدو أن الحضارة الغربية غير قادرة على مواجهة نفسها وعلى مواجهة هذه الحقيقة، ولذا فهم لا يكفّون عن الثرثرة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأطفال وحقوق القطط والكلاب.. إلخ. أما الإبادة النازية ليهود أوربا، فبدلاً من رؤيتها على أنها ظاهرة متكررة فى الحضارة الغربية الحديثة (التى بدأت بإبادة السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية واستمرت حتى العصر الحديث فى فيتنام والبوسنة والشيشان، مرورًا بإبادة السكان الأصليين فى أستراليا ونيوزيلندا وإبادة الملايين فى إفريقيا). نقول بدلاً من أن تدرك الحضارة الغربية الإبادة النازية باعتبارها ظاهرة متكررة، فإنها تصنّفها على أنها حدثٌ فريدٌ، ثم تستخدمها كستار من دخان لتخبئة ما يدور من مذابح فى عالمنا.

لكن الأعمال الأدبية - فى كثير من الأحيان - لا تعكس الواقع، وإنما تصوّره تصويرًا نقديًا. فأدب القرن التاسع عشر (بما فى ذلك الأدب

الرومانسى) كُتب إبَّان الثورة الصناعية وسيادة المفاهيم النفعية المادية، ومع هذا وضع الأدبـاء نُصب أعينـهم الهجـوم علـى وحشـية الثـورة الصناعيـة ولا إنسانية المفاهيم النفعية المادية.

ونفس القول ينطبـق علـى الروايـة الخياليـة التـى كتبـها عـالم اللغـة البريطـانى اليـهودى جـورج سـتانير (بعنـوان نقـل أ. هـ. إلى سـان كريستوبال)، فهى رواية تاريخية خيالية. تدور حول حدث خيالى: العُثور على هتلر حيًا فى إحدى غابات الأمازون، والقبـض عليـه مـن قِبَـل بعـض اليهود الذين اقتفـوا أثـره، والذيـن قـرروا محاكمتـه. والمحاكمـة دون شـك خيالية، ولكنها مع هذا تصـل إلى كبـد الحقيقـة، إذ يبيِّـن هتلـر العلاقـة الوثيقة بين النّازية والصهيونية، مشيرًا إلى أحد المفاهيم العنصرية الأساسية التى تبناها النازيون، أى مفهوم التفـاوت بـين الأعـراق والجنـس الأرقـى، مخاطبًا اليهود الذين يقومون بمحاكمته:

«يجب أن تفهموا أننى لم أختر شيئًا. لم يكن الجنس المتفوق من بنـات أحلام أدولف هتلر، الذى كان يحلم باستعباد الشـعوب الأدنـى. أكـاذيب. أكاذيب.. لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك. قوة تعاليمكم الخفيـة. تعـاليمكم أنتم. شعب مختار. شعب اختاره الله لنفسه. العِـرق الوحيـد المختـار علـى وجه الأرض.. وجعله الإله فريدًا دون البشر».

ثم يقتبس هتلر من العهد القديـم، ويشـير خصوصًـا إلى بطـولات يوشـع ابن نون، وهو بطل قومى/ دينى يتواتـر ذكـره فـى الكتابـات الصهيونيـة، ويوصف بأنه حرق المدن وخربها كليةً وأباد سكانها، نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى الحيوانات، هى الأخرى أبيدت بحد السـيف. ولـذا فـهتلر يـرى أن كتاب اليهود المقدّس تفوح منه رائحة الدم. ثم يُضيف قائلاً: «لقـد تعلمـت أن أى شعب لابد أن يكون مختـارًا كـى يُحقـق مصـيره، وألا يكـون هنـاك أى شعب آخر فى نفس مرتبتـه: الأمـة الحقيقيـة سـردفين، جسـد واحـد

خلقه الله بإرادته، وخلق دمها الطاهر، خلقها سر الإرادة والاختيار. أن تهزم أرضها الموعودة وتستبعد كل من يقف فى طريقها. وأن تعلن نفسها خالدة أبدية».

والمصطلح النازى الذى يستخدمه هتلر يُذكِّر المرء بالمصطلح الصهيونى، فكلاهما يأخذ المفاهيم الدينية ثم يقوم بعلمنتها وتجنيد الجماهير من خلالها، وبذلك تحوَّل مفهوم الشعب المختار إلى مفهوم الشعب العضوى (فولك) الذى يرتبط أعضاؤه بأرضهم وببعضهم البعض برباط عضوى أزلى، هو «روح الشعب» أو «المصير الأزلى» أو «إله الشعب» إلى آخر هذه المطلقات والغيبيات العلمانية. ثم يستطرد هتلر قائلاً: «لم تكن عنصريتى سوى تقليد هزلى لعنصريتكم أنتم، تقليد هزيل. ماذا يكون الرايخ الذى سيدوم ألف عام بالقياس إلى صهيون الأبدية؟».

إن هتلر بمرافعته هذه يبين أن فكرة الشعب المختار عرقيًا، هى فكرة غربية قد يكون لها جذور يهودية، ولكنها أصبحت جزءًا من التراث الغربى. وقد قال هتلر فى إحدى خطبه (الحقيقية) إنه لا يوجد سوى شعب مختار واحد، وهو الشعب الألمانى. وقد بيَّن أحد أهم الزعماء والمنظرين النازيين، ألفريد وزنبرج، أثناء محاكمته فى نورمبرج أن نظرية التفاوت بين الأعراق هى جزء لا يتجزأ من الفكر الغربى. فأشار إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) فى كتاب عن الاستعمارى الإنجليزى كتشنر، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكى الأنثروبولوجى ماديسون جرانت والعالم الفرنسى لابوج، وأن رؤيته العرقية هى نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية. ومن المعروف تاريخيًا أن هتلر تشرَّب كثيرًا من آرائه من الدراسات الإمبريالية/ العنصرية التى انتشرت فى أوربا آنذاك كالميكروب لتبرير المشروع الإمبريالى الغربى.

ولكن الأهم من هذا أن هتلر فى مرافعته الخيالية وضع الإبادة النازية فى سياق الحضارة الغربية باعتبارها حضارة إبادية لا تتردد فى إزالة الآخر من طريقها (فهو من الناحية العرقية يشغل مكانة أدنى، ولذا لا يستحق الحياة): «أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء. بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك فى الغابات - إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعًا أو من مرض الزهرى حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيبو علىّ يا سادة. أم يجب علىّ أن أذكركم؟ عشرون مليونًا. هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد فى المهد صبيا؟ فى لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين». ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفًا وعددًا.

وما لم يذكره هتلر فى دفاعه عن نفسه فى المحاكمة الخيالية وقائع الإبادة المختلفة فى التاريخ الغربى الحديث. ولكننا نعرف أنه فى أحاديثه الخاصة (الحقيقية) كثيرًا ما كان يبدى إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر. وقد صرح هتلر فى إحدى خطبه أن الحرب التى تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة فى شرق أوربا لا تختلف كثيرًا عن كفاح البيض فى أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها «أرضًا عذراء» أو «صحراء مهجورة»، تمامًا كما كان يتحدث الصهاينة عن «أرض بلا شعب» وعن فلسطين باعتبارها «صحراء ومستنقعات».

بعد أن وضع هتلر الإبادة النازية ليهود أوربا فى سياقها الحضارى الغربى العريض، يضعها فى سياق ألمانى يهودى: رفض اليهود الاندماجيين للنازية وترحيب الصهاينة بها - التعاون بين الصهاينة والنازيين - الصهيونية فى علاقتها النظرية والفعلية مع النازية! فكشفت

عن كثير من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة. يقول هتلر فى مرافعته الخيالية فى نفس الرواية المشار إليها.

«هذا الكتاب الغريب المسمى الدولة اليهودية (كتاب هرتزل والإنجيل الصهيونى) قرأته بعناية بالغة. إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك (والعسكرية البروسية)، اللغة، الأفكار وحتى النبرة نفسها. إنى أتفق معكم أنه كتاب ذكى صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة. ولكن من الذى خلق إسرائيل فى واقع الأمر، هرتزل أم أنا؟ انظروا إلى السؤال دون تحيز؟ هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل.. دون مذبحة الإبادة التى قمت بها. إن مذبحتى هى التى أعطتكم شجاعة الظلم التى جعلتكم تطردون العربى من منزله وحقله لأنه كان يقف فى طريقكم. هذ هو الذى جعلكم قادرين على تحمل معرفة أن هؤلاء الذين قمتم بطردهم يجلسون يكاد يأكلهم العفن فى معسكرات اللاجئين، على بُعد أقل من عشرة أميال [من وطنهم]. مدفونين أحياء فى بؤسهم».

ولم يذكر الروائى، على لسان هتلر، معاهدة الهعفراه بين النازيين والصهاينة التى أنقذت الجيب الصهيونى من الهلاك، إذ إنه كان يعانى من توقف الهجرة الاستيطانية ومن تدفق رءوس الأموال، الأمر الذى تكفل به النازيون (نظير أن يقوم الصهاينة بكسر طرق المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية). ولهذا قال أحد المعلقين، إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أى منظرها)، فإن هتلر هو لينينها (أى من حول النظرية إلى واقع سياسى).

□□□

النازيون الجدد

نشرت جريدة الاتحاد فى عددها الصادر فى ٥ أبريل ٢٠٠١ تصريحات الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان، وزير الإعلام والثقافة، بخصوص الوضع

فى الأراضى المحتلة، فقد انتقد بشدة الدعم غير المحدود الذى تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل، مما يساعدها على الاستمرار فى عملية القمع والإرهاب المستمرة التى تمارسها ضد الفلسطينيين. وقد وصف سموه الصهاينة بالنازيين الجدد، وهو وصف - فى تصورى - جرئ ودقيق. فنقط التشابه بين النازيين والصهاينة كثيرة.

ومع هذا أحاط الصهاينة الإبادة النازية ليهود أوربا (التى يطلقون عليها الهورلوكوست) بالقداسة. كما أنهم يحاولون احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب. ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيونى أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيرًا عن نمط تاريخى عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية. كما يرفض الصهاينة تمامًا محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين، على سبيل المثال، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض، أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم. ولذا كمَّمت أفواه البولنديين الذين عانوا من ويلات الحكم النازى أكثر من أية جماعة إنسانية أخرى. كما أن عدد ما فقدوا من الضحايا يفوق عدد الضحايا اليهود.

لكن المفارقة الكبرى أن كثيرًا من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازى» فى كثير من السياقات، فدعاة السلام من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازى» للإشارة لدعاة الحرب من المستوطنين، بل إن بعضهم يشير إلى جميع المستوطنين فى الضفة الغربية باعتبارهم نازيين. ويقوم اليهود الشرقيون (السفارد) بالإشارة إلى اليهود الغربيين بأنهم «أشكى نازى» أى أشكنازى. ونشرت جريدة يديعوت أحرونوت فى عددها الصادر فى ٣ مايو ٢٠٠٠ مقالاً أشار إلى أن أحد طلبة قسم عِلْم

النفس بجامعة تل أبيب يُدعى آدم جوفرى كتب مقالاً شبَّه اليهود المتدينين بالنازيين.

وكثير من الصهاينة الذين يسمون بالمعتدلين يشبِّه الصهاينة المتطرفين بأنهم نازيون، فما يكل إيتان (عضو الكنيست الإسرائيلى) أشار إلى وجود تشابه كبير بين القوانين التى يقترح مائير كاهانا تطبيقها على العرب فى الدولة الصهيونية وقوانين نورمبرج النازية التى طُبِّقت على اليهود.

ومؤخرًا (ملحق هآرتس ٢٨ أبريل ٢٠٠٠) وصف الصحفى أمنون دنكنر أحد نشطاء حركة كاخ (إيتامار بن جبير) بأنه نازى صغير. فقام هذا الأخير برفع دعوة قذف ضد دنكنر الذى طلب من البروفسور موشيه تسيرمان (المتخصص فى التاريخ الألمانى) أن يقوم بإعداد وثيقة تعقد مقارنة شاملة بين أيديولوجية جماعة كاخ (التى أسسها كاهانا) والأيديولوجية النازية. وقد قام البروفسور بالفعل بإعداد الوثيقة وأورد فيها نصًّا منشورًا وزعته جماعة كاخ فى أعقاب مذبحة صابرا وشاتيلا ورد فيه ما يلى: «حربنا ليست حربًا ضد منظمة التحرير الفلسطينية فقط ولكنها ضد كل الشعب الفلسطينى. وهى حرب مقدسة تقتضى الإبادة لكل هذا الشعب!». وقد أشار البروفسور إلى أن حركة كاهانا تستخدم عبارات مثل «الشياطين» و «الصراصير» و «الحشرات» و «الأفاعى» و «السرطانات» و «الطفيليين» للإشارة إلى العرب، وهى عبارات استخدم النازيون بعضها للإشارة لليهود.

وقد بيَّن البروفسور أن كلاً من النازيين والمتطرفين اليهود يدعون إلى طرد الأجانب «وتطهير البلاد منهم» كما يدعون إلى تحريم الزواج المختلط. أما «الأجانب» (العرب فى فلسطين واليهود فى ألمانيا) الذين يبقون داخل حدود الدولة (النازية أو الصهيونية) فلن يُسمح لهم بالإقامة فى الأحياء النقية عنصريًا!

إن كل التفاصيل والوقائع التى أوردناها تهدف إلى توضيح أن ثمة إدراكًا صهيونيًا لوجود جوانب نازية فى بعض الأيديولوجيات الصهيونية مثل أيديولوجية اليهود الأرثوذكس المتطرفين وأيديولوجية جماعة كاخ. وهذا يعنى أنه لا داعى على الإطلاق أن تحصر كلمة «نازى» للإشارة للنازيين الألمان الذين قاموا بإبادة اليهود، وإنما يمكن استخدامها للإشارة لكل من يفكر بطريقة نازية ويسلك سلوكًا نازيًا، ألمانيًا كان أم غير ألمانى.

انطلاقًا من هذا يمكن أن نشير للأيديولوجية الصهيونية ككل باعتبارها أيديولوجية عرقية نازية، فقانون العودة الصهيونى (الذى يعتبره بن جوريون العمود الفقرى للمستوطن الصهيونى) يفتح أبواب إسرائيل على مصراعيه لأى يهودى يود الاستيطان فى أرض فلسطين المحتلة، وينكر هذا الحق الإنسانى البسيط على أى فلسطينى اضطر إلى ترك وطنه تحت تهديد السلاح منذ بضع سنوات. كل هذا بهدف تأسيس دولة يهودية خالصة لا تختلف كثيرًا فى منطلقاتها عن الدولة النازية.

وقد قارن كثير من الكُتَّاب اليهود والإسرائيليين بين قانون العودة النازية. فعلى سبيل المثال، أعرب الأستاذ الإسرائيلى د. كونفيتس - خلال النقاش الذى دار قبل الموافقة على قانون العودة - عن مخاوفه من احتمال مقارنة هذا القانون بالقوانين النازية، ما دام يُجسِّد مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس دينى أو عرْقى.

وبعد صدور هذا القانون، حذَّرت جريدة جويش نيوزلتر، فى عددها الصادر فى ١٢ مايو ١٩٥٢، من أن هذا القانون يعيد إلى الذاكرة النظرية العنصرية الخطيرة القائلة بأن الفرد الألمانى يتمتع بمزايا جنسيته، بغض النظر عن المكان الذى يوجد فيه.

وفى مقارنة عقدها روفن جراس بين قانون العودة والقوانين النازية، بيَّن أن قانون العودة يمنح امتيازات الهجرة لأىٍّ يهودى بموجب تعريف قوانين

نورمبرج: أى أن يكون جده يهوديًا. أى أن يكون حاييم كوهين، الذى كان قاضيًا بالمحكمة العليا فى إسرائيل أن «من سخرية الأقدار المريرة أن تُستخدَم نفس الأطروحات البيولوجية والعنصرية التى روَّج لها النازيون والتى أوحت لهم بقوانين نورمبرج الشائنة، كأساس لتعريف الوضع اليهودى داخل دولة إسرائيل». وهناك، على الأقل، حالة واحدة معروفة، قامت فيها السلطات الدينية فى إسرائيل بالرجوع إلى السجلات النازية، للتأكد من الهوية العنصرية الدينية الإثنية لأحد المواطنين الإسرائيليين.

وإلى جانب قانون العودة هناك عشرات من الممارسات الصهيونية الأخرى ذات الطابع العنصرى الفاقع، الذى يبرر استخدام كلمة «نازى». خذ على سبيل المثال قوانين الصندوق القومى اليهودى التى تنص على أن هذا الصندوق يقدِّم الدعم لليهود ولليهود وحدهم، كما أن أحد بنوده تقرر أنه لا يمكن تأجير أرض يمتلكها الشعب اليهودى لغير اليهود، مما يعنى أن ٩٠٪ من أرض فلسطين المحتلة لا يمكن لغير اليهود (أى العرب) أن يعملوا فيها أو فى المستوطنات الزراعية المقامة عليها أو حتى أن يستأجروا شقة فى عمارة مقامة على هذه الأرض.

ألا يبيِّن هذا أن الصهيونية تستند إلى رؤية نازية تترجم نفسها إلى ممارسات صهيونية، وأن سمو الشيخ عبد الله بن زايد حين وصف الصهاينة بأنهم نازيون جدد قد أصاب عين الحقيقة؟

□□□

تاريخ أول دولة يهودية فى العصر الحديث: كيف تم القضاء عليها

من الحقائق التى تغيب عن الكثيرين ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب بالمشروع الاستعمارى الاستيطانى الغربى. فوجودهم فى فلسطين هو تعبير عن هذا الارتباط وليس عن الارتباط الأزلى بين اليهود وأرض

الميعاد. وتوجد عدة تجارب استيطانية قام بها أعضاء الجماعات اليهودية فى جزر أمريكا اللاتينية مرتبطة بما كان يُسمَّى «المثلث اللعين» إذ كانت السفن الأوربية تحمل البضائع، كالأسلحة والبارود والمشروبات الروحية الرخيصة والحلى، من أوربا إلى الساحل الإفريقى فتفرغها، ثم تحمل العبيد الذين كانوا يُنقلون إلى مزارع السكر فى الولايات المتحدة وجزر الكاريبى ويباعون هناك، وكانت السفن الفارغة تحمل المنتوجات الاستوائية كالسكر والنيلة والصمغ والقهوة إلى أوربا، وهكذا. وكان يوجد مثلث آخر لم يكتسب أهمية إلا فى منتصف القرن الثامن عشر. فكان تجار نيو إنجلند يرسلون شراب الروم الكحولى إلى إفريقيا ويبادلونه بالعبيد ويبحرون إلى جزر الهند الغربية حيث كانوا يبيعون العبيد ويشترون عسل قصب السكر اللازم لصناعة الروم ثم يتجهون لبلادهم. وقد كانت مزارع السكر ذات أهمية كبرى بالنسبة لاقتصاد هذه الجيوب الاستيطانية. فكان هناك الجيب الاستيطانى فى كوراساو وهى إحدى جزر الهند الغربية الهولندية وتقع على مقربة من ساحل فنزويلا. وتعود أهمية كوراساو إلى أنها من التجارب الأولى للجماعات اليهودية الاستيطانية (١٦٥٠) وإلى أنها تندرج فى إطار الاستعمار الاستيطانى الغربى الذى بدأ نشاطه فى العالم الجديد واستمر فى التوسع إلى أن وصل إلى آخر حلقاته فى فلسطين فى العصر الحديث.

ومن التجارب الاستيطانية الأخرى تجربة الاستيطان فى كايان، وهى جزيرة على ساحل أمريكا الجنوبية، توجد بها مدينة تحمل نفس الاسم. وقد حاول بعض الفرنسيين الاستيطان فيها وفشلوا، ثم وصل بعض الهولنديون وأعضاء الجماعة اليهودية (المارانو)، فوجدوا الأرض المزروعة والقلعة المسلحة التى تركها المستوطنون وراءهم، وحصلوا على ميثاق من شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٦٥٦ يسمح لهم

بالاستيطان. ووصل عدد أكبر من اليهود من البرازيل بعد عدة أعوام ومنحتهم الشركة مزايا وحريات عديدة منها أن تكون أية أرض يضعون يدهم عليها ملكية خالصة لهم. وقد انضم لهم المزيد من أعضاء الجماعات اليهودية عام ١٦٦٠ من ليجهورن. وازدهرت المستوطنة حتى عام ١٦٦٤، حينما استولى عليها الفرنسيون ورحل اليهود إلى سورينام وجامايكا.

ولكن أهم التجارب الاستيطانية الأولى (من منظور التطورات اللاحقة) تجربة الاستيطان فى سورينام التى شهدت ظهور أول جيب يهودى استيطانى ابتداءً من عام ١٦٣٩. (سورينام جمهورية مستقلة، كانت تدعى فى الماضى «جيانا الهولندية» حيث كانت تابعة لهولندا. وهى تقع، فى أمريكا الجنوبية، بين جيانا البريطانية والبرازيل وجيانا الفرنسية، ويحدها من الشمال المحيط الأطلنطى).

وكان من أهم مراكز اليهود فى سورينام مستوطنة يودين سافانا، ومعناها «سافاناه اليهود»، التى تأسَّست عام ١٦٧٠ والتى كانت تقع على بعد عشرة أميال من باراماريبو أكبر مدن سورينام فى بريزدنتس أيلاند «جزيرة بريزيدنت أو الرئيس). كانت الجماعة الاستيطانية اليهودية فى هذه الجزيرة شبه مستقلة، إذ أسس أعضاؤها عددًا من المزارع هناك وسط الغابات. وقد استخدموا العبيد السود فى شق الطرق وإزالة الأعشاب وفى العمل فى المزارع، كما أسسوا مدينة محاطة بالطرق الجديدة. وقد بلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة عام ١٧١٩، معظمهم من العبيد المجلوبين من إفريقيا.

إلا أن أعدادًا كبيرة منهم كانت تهرب من المستوطنين إلى الغابات وتتحد مع السكان الأصليين من الهنود الذين اقتُلعوا من أرضهم، ثم تقوم

بغارات على المزارع. وكان أصحاب المزارع يستجلبون المزيد من العبيد ليحلوا محل الهاربين. ولكن هؤلاء كانوا ينضمون بدورهم إلى الهاربين في الغابات. وقد تزايد عدد الفارين وأصبحوا يشكلون تهديدًا حقيقيًا للمستوطنين اليهود البيض الذين صمدوا بعض الوقت ضد العبيد الثائرين، فكوَّنوا ميليشيا عسكرية وجددوا الحملات ضد الثوار. ولكن الإرهاق من الحرب وهن الجهد المبذول لإحباط ثورات العبيد ابتداءً من ١٦٩٢، وانتشار مرض الملاريا، أديا في نهاية الأمر إلى انتصار السود عليهم عام ١٧٧٤. ثم شب حريق فيما تبقى، فلم يبق من آثار اليهود سوى شواهد قبور عليها كتابات بالعبرية.

وثمة نقاط تشابه عديدة بين تجربة المستوطنين اليهود في سافاناه اليهود والمستوطنين الصهاينة في فلسطين، من بينها أن كلاً من المستوطنين اليهود في فلسطين وسافاناه اليهود تم توطينهم خارج أوربا تحت رعاية أكثر من دولة أوربية واحدة: إنجلترا ثم هولندا في حالة سورينام، وإنجلترا ثم الولايات المتحدة في حالة فلسطين، وأنه تم توطينهم ليقوموا على خدمة المصالح الإمبريالية الغربية. كما أن كلتا الجماعتين الاستيطانيتين كانتا منقسمتين وبحدة إلى سفارد وأشكناز يتصارعون فيما بينهم.

ولكن أهم السمات من منظور اللحظة الحالية أن كلتا الجماعتين كانتا مرفوضتين من قبَل أعضاء المجتمع المُستهدَف استغلاله: العبيد السود المُستجلَبين والسكان المحليين في سورينام، والفلسطينيين العرب في فلسطين. وقد انتصر السود على سافاناه اليهود، أما في فلسطين فإن المعركة مازالت دائرة بين الفلسطينيين وجنود الاحتلال الإسرائيلي. وإن كان من الممكن القول بأن انتفاضة الأقصى قد قوَّضت تمامًا أحلام الصهاينة

بإمكانية الحفاظ على الأمر الواقع: مستوطنون اغتصبوا الأرض، وسكان أصليون مغلوبون على أمرهم (خاصةً لأنها جاءت في أعقاب انسحاب الإسرائيليين المُذِّل من جنوب لبنان). وفي تصورى أن تقويض أحلام المستوطنين هو مؤشر على بداية النهاية، فالجيوب الاستيطانية عادةً مبنية على أساطير عنصرية يصدقها المغتصب إلى أن يفيق حين يسمع زمجرة المستضعفين، وحين تصل أحجارهم إلى رأسه ويدخل رصاصهم صدره وقلبه.

□□□

الحلخام القائد:

الحاخام عوفاديا يوسف شخصية غريبة الأطوار تعبِّر عن تناقضات التجمع الصهيوني. فمنذ عدة أعوام أصدر فتوى دينية شهيرة حول تأييد الانسحاب الإسرائيلي من أراض عربية محتلة حقنًا للدماء وصونًا للأرواح اليهودية. وقد استدعى الحاخامٌ مفهومًا دينيًا يهوديًا هو «بيكواح نيفيش» أي «فداء النفس». يعني أن النفس اليهودية أغلى من الأرض (اليهودية) ولا يصح التضحية بها.

ولكن هذا الحاخام نفسه صرح في موعظته الأسبوعية في عيد الفصح العبرى هذا العام أن «الإله يجب أن يدمر العرب» وطلب من أتباعه أن يكرروا وراءه عبارة «صب غضبك على الأغيار» كما طلب من الإله «أن يرد الصاع صاعين إلى العرب وأن يقطع نسلهم ويبيدهم ويذلهم ويمحو أثرهم». وفي مناسبة أخرى صرح بأن العرب «أنجاس وأفاعٍ» وأن «الإله يندم كل يوم على أنه خلق ذرية إسماعيل».

وقد حاول بعض المتحدثين الرسميين الإسرائيليين التخفيف من حدة وقع هذا التصريحات العنصرية. فقالوا إن الحاخام يقصد «المخربين» وليس

العرب على وجه العموم. وكما قال الحاخام ميخائيل ملكيئور (من حزب ميماد الديني «المعتدل» والمؤتلف مع حزب العمل في قائمة إسرائيل واجب) «ثمة وصية في الدين اليهودي تقول لنا بعدم إدارة الخد الأيسر لمن يصفعنا على الخد الأيمن. ومن هنا فليس المطلوب منا أن نكون إنسانيين مع الذين يريدون المس بنا تنفيذًا للوصية القائلة: الذي يأتي لقتلك بكر بقتله».

ولا يهمنا في هذا السياق اتهام الحاخام يوسف بالعنصرية أو تبرئته من التهمة أو التخفيف منها، وإنما يهمنا أن نفسر سر هذا التحول، حتى نفهم حركيات التجمع الصهيوني. ولفهم هذا لابد وأن نضع اللعنات التي صبها عوفاديا يوسف على العرب في سياق أوسع من اللعنات الأخرى!

قد أعلن الحاخام في فبراير عام ١٩٩٩ أن كان قضاة المحكمة العليا في إسرائيل نجسون يرتكبون الفاحشة (معاريف ١٩ مارس ٢٠٠٠). كما صب لعناته على النساء العلمانيات اللائي لا يمارسن شعائر الطهارة وبالتالي يلدن أطفالاً نجسين. وفي عام ١٩٩٧ صرح بأن «الرجل يجب ألا يسير بين امرأتين أو حمارين أو جملين. لماذا؟ لأن الناس لا يعرون التوراة أي التفات، وكل من يسير بالقرب منهم يصبح مثلهن». وفي ٣ مارس ٢٠٠٠ في إحدى مواعظه قال الحاخام إن يوسي ساريد (وهو من أهم شخصيات اليسار العلماني) ملعون، تمامًا مثل كل أعداء اليهود وأن الإله سيجتثه من جذوره. وقد أدلى الحاخام بتصريحه هذا قبل عيد البوريم حيث يتم شنق تمثال هامان، الوزير الفارسي، الذي حاول أن يبيد اليهود.

ولم تسلم المؤسسة الدينية الإشكنازية من هجمات الحاخام عوفاديا يوسف، فحينما سُئل عن أقرب العقائد الدينية إلى اليهودية قال حركة

حبد، وهى حركة دينية إشكنازية يهودية أرثوذكسية، وهو بتعليقه هذا ينكر عليها صفة اليهودية.

الهجوم إذن ليس ضد العرب وحدهم. وإنما ضد حزمة من المؤسسات والعقائد والجماعات البشرية، فما هى دوافع الحاخام؟ ابتداءً يجب أن نشير إلى أن الحقيقة الأساسية فى حياة الحاخام عوفاديا يوسف هى أنه مؤسس حزب شاس وزعيمه الروحى، وهو حزب دينى/ قومى سفاردى. والحاخام من مواليد العراق (١٩٢٠)، وكان رئيس المحكمة الدينية اليهودى فى القاهرة (١٩٤٧ - ١٩٥٠)، والحاخام السفاردى الرئيسى لمدينة تل أبيب (١٩٤٥ - ١٩٧٢)، والحاخام السفاردى الرئيسى فى إسرائيل (١٩٧٣ - ١٩٨٣).

ويؤوغ نجمه هو انعكاس لعدم تجانس التجمع الصهيونى، فهذا التجمع منقسم على نفسه عدة انقسامات: فهناك الانقسام الأكبر وهو الانقسام الدينى العلمانى، ولكن هناك انقسام آخر لا يقل عنه أهمية هو الانقسام الغربى الشرقى. والجدول التالى الخاص بالتقسيم على أساس دينى يبين مدى تداخل الأمور فى إسرائيل:

٣,٩٪	أرثوذكس متطرفون (حاريدى)
١١,٠٪	متدينون (داتى)
٢٦,٨٪	تقليدى (ماسورتى)
٢٣,٣٪	علمانى يحتفظ ببعض التقاليد (حيلونى حاميكاييم ماسورت)
٣٠,٣٪	علمانى (حيلونى)
٤,٤٪	معادى للدين

ونرجو ملاحظة أن الماسورتى (التقليدى) ليس متدينًا بالمعنى المعروف، وإنما هو من يرى ضرورة الحفاظ على التقاليد، وليس بالضرورة من يؤمن بالعقيدة.

وتزداد الصورة تركيبًا إن صنفنا أعضاء التجمع الصهيونى على أساس أصولهم العرقية. وإلى جانب هذه الانقسامات والصراعات يوجد الصراع الأكبر، وهو الصراع العربى الإسرائيلى. ورغم تأثيره العميق على الصراعات الأخرى إلا أن هذا ليس هو موضوعنا فى هذا المقال.

وقد أسست الدولة الصهيونية مجموعة من يهود شرق أوربا الذين فقدوا إيمانهم الدينى وأصبحوا ملاحدة كانوا يرون أن الصهيونية إنما هى ثورة على العقيدة اليهودية. فالرواد الصهاينة أو الآباء الصهاينة كانوا لا يكنون أى حب أو احترام للعقائد والتقاليد اليهودية، وكانوا يرون أن دولتهم العبرية تشكل نهاية للشخصية اليهودية التقليدية وبداية للشخصية العبرية التى تصاغ على نمط الشخصية القومية العلمانية فى الغرب. وعلى هذا الأساس تم تأسيس الدولة الصهيونية، ولكن الدولة الصهيونية مع هذا ادعت أنها «دولة يهودية» تستمد شرعيتها من كونها يهودية. ولذا مع دخول الفكر العلمانى مرحلة الأزمة على المستوى العالمى وعلى مستوى إسرائيل بدأت المؤسسة الدينية فى إسرائيل تطرح نفسها كبديل. فعلت ذلك على استحياء فى بادئ الأمر، ثم مع تصاعد أزمة الصهيونية العلمانية، ازدادت ثقة بنفسها وازدادت نبرتها حدة.

وتطالب المؤسسة الدينية أن تصبح الدولة اليهودية «يهودية» بالمعنى الدينى وليس بالمعنى الإثنى، بمعنى أن يهودية هذه الدولة يجب ألا تكمن فى مجموعة من الرموز القومية الدينية (مثل النشيد القومى وأنواع معينة من الطعام.. إلخ) وإنما يجب أن تتبدى فى مجموعة من الممارسات والشعائر الدينية الحقيقية مثل إقامة شعائر السبت (التى يرى العلمانيون

أنـها قاسية للغاية وتحرمـهم من عطلة نهاية الأسبوع) واتباع قوانين الكاشروت (أى الطعام المباح شرعًا، وهى كثيرة ومركبة وصعبة).

وتوجد قضايا أخرى عديدة قد نفرد لها مقالاً مستقلاً فى المستقبل. ولكن إلى جانب الصراع الدينى العلمانى. هناك الصراع الصفاردى (الشرقى) الإشكنازى (الغربى). فمن المعروف أن التقاليد السفاردية الدينية (المنهاج السفارى) كان له اليد الطولى فى فلسطين، وكان على الحاخامات الإشكناز أن ينضموا إلى الجماعة الدينية السفاردية التى كان يترأسها ريشون لتسيون (الأول فى صهيون) وهو حاخام سفاردى، كان يختاره المجلس الحاخامى ثم توافق عليه السلطة العثمانية.

ولكن ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر وتزايد النفوذ الغربى بدأت تظهر جماعات إشكنازية مستقلة، تمولها الجماعات اليهودية فى أوربا وبمساعدة قناصل الدول الغربية، خاصةً روسيا القيصرية، التى كانت تبذل قصارى جهدها أن تتدخل فى شئون الدولة العثمانية الداخلية.

وبدأ سلطان الإشكناز يتزايد حتى عام ١٩١١ حينما وافق الحاخام السفاردى بن زيون أوزايل أن يتقاسم السلطة الدينية مع الحاخام يتسحاق كوك. ولكن ما حدث أن الحاخام كوك، وكان صهيونيًا حتى النخاع، نجح فى الاستئثار بها تقريبًا، حتى سادت التقاليد الإشكنازية، ووجد الحاخام السفاردى نفسه مضطرًا للتنازل إلى أن وصل الأمر إلى أن أصبحت الثقافة السفاردية الدينية والشعبية موضع احتقار، وتحت شعار صهر المنفيين حاولت المؤسسة الإشكنازية محو هوية السفارد.

يقود الحاخام عوفاديا يوسف ثورة ضد هذا الوضع بشقيه الدينى والإثنى. فهو يود أن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فيعيد المنهاج الدينى السفاردى إلى مكان القيادة، ويؤكد الهوية السفاردية. إن الحاخام عوفاديا يوسف يقود صراعًا حضاريًا تبدى فى تأسيسه لحزب شاس الذى أخذ

يتعاظم نفوذه فـى الخارطـة السياسـية الإسـرائيلية إلى أن حصـل علـى ١٧ مقعدًا فى الكنيست فـى انتخابـات ١٩٩٩، وبذلـك أصبـح ثـالث حـزب، ومنافسًا قويًا لحزب الليكـود علـى القواعـد الشـعبية الشـرقية التـى يرتكـز إليها، والتى حقق من خلالها بيجين ثورته الانتخابية عام ١٩٧٧م، حينما أسقط المؤسسة العمالية وحل محلها.

إن الحاخـام عوفاديـا يوسـف يحـاول تـأكيد الهويـة اليهوديـة الدينيـة الإثنية الشرقية، فصراعه الحضارى يتم على المستويين الدينى والإثنى. وهو لم يعـد يكتفـى بـأن يبـتز الحكومـات الإسـرائيلية المتتاليـة لتمويـل نظامـه التعليمـى أو مؤسسـاته الاجتماعيـة إذ نجـده يحـاول الآن أن يلعـب دورًا سياسيًا قياديًا بحيث يمكنه المشاركة فى السلطة حتى يمكن إعـادة تقسـيم الثروة القومية اليهودية.

ويتم التحـرك داخـل هـذا المنـاخ السياسـى العـام فـى إسـرائيل المشـبع بالتفكير العنصرى ضد العرب (خاصـةً بعـد تصـاعد الانتفاضـة) وبـالخوف منهم. ولعل تخلى الحاخام عوفاديـا يوسـف عـن موقفـه القديـم بخصـوص «فداء النفس» هو محاولة من جانبه أن يثبت للجمهور الإسرائيلى أن حزبه الشرقى قد تأسرل (أى اكتسب الصبغة الإسـرائيلية، أى أصبـح إسـرائيليا) تمامًا وأنه بالتالى قادر على قيادة الدولة الصهيونيـة والهجـوم علـى العـرب يكسبه قدرًا كبيرًا من الشرعية.

والله أعلم.